﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٧﴾ [فصلت: 6 - 7]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

لمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقة موقفَ المُشركين بما نطقت به ألسنتهم، من الرَّفض التّامِّ لقَبول الدَّعوة، وقد علَّلوا ذلك بعدم فهْمِهم لِما يدعو إليه النَّبيُّ ﷺ، ولمّا حشدوا أسباب عدم الإيمان، وبالغوا في كذبهم على أنفسِهم؛ ناسب أن تُذكِّر الآيات الَّتي بعدها الرَّدَّ عليهم، فجاء أمْرُ الله تعالى له بأن يُجيب عن قولهم بجوابٍ يوَضِّحُ أنَّهم مُعاندون لا باحثون عن الحقِّ.

العنيدُ البليد يركب متنَ حماقته، ويصعد سُلَّم خسارته

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟﴾: (قوم) أصلٌ يدلُّ على اعتدال الشَّيء واستوائه، يُقال: قامَ الشَّيءُ، واستَقامَ: اعتدَل واستَوى، وأقمتُ الشَّيءَ، وقوَّمتُه فَقامَ، بِمَعنى استقام[1]، والاستقامةُ: ضِدُّ الاعوِجاجِ، وهي جعْلُ الشَّيء قويمًا، أي: غير ذي عوج، وتُستعمل كثيرًا في معنى الثَّبات على الحقِّ والرُّشدِ؛ لأنَّهُ شاعَ تَشبيهُ الضَّلالِ والفَسادِ بِالاعوِجاجِ والالتِواءِ، وهي مُستعارةٌ لصلاحِ العملِ الباطِنيِّ: وهو الاعتِقادُ، والظّاهريِّ: وهو الأفعالُ والأقوالُ تَشبيهًا للعَمَلِ بِخَطٍّ مُستقيمٍ تَشبيهَ مَعقولٍ بِمَحسوسٍ[2]، والمعنى: اسلكوا المسلك القويم، لا تميلوا عن سبيله[3].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (قوم).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/ 273، و24/ 238.
(3) الشَّوكاني، فتح القدير: 4/ 580، والسَّخاوي، تفسير القرآن العظيم، ص: 269، وشحاتة، تفسير القرآن الكريم: 24/ 4869.

2) ﴿وَوَيۡلٌ﴾: المعنى المحوريُّ لـ(وَيْل) يدورُ على إعلانٍ بإيقاعِ عاقبةٍ مهلكةٍ لعملٍ أو تَصَرُّفٍ: وعيدًا أو نُدبةً واستغاثةً أو تحذيرًا أو ما إلى ذلك، والويلُ يأتي بمعنى الحُزْنِ والهلاكِ والمشقَّةِ من العذابِ، فيقصدُ بالكلمةِ في الوعيد حلولُ الشَّرِّ، وكلُّ مَن وقع في هَلَكة يستحقُّها دَعا بالوَيْل، ويُقصدُ به في النُّدبةِ وغيرِها الحُزنُ[1]، و(ويلٌ) في الآيةِ يدلُّ على الحزنِ والثُّبور ومُرِّ العذاب[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

ليس للرَّسول ﷺ إلّا أداءُ الرِّسالة تحذيرًا ووعيدًا

أمر اللّه تعالى رسولَهُ ﷺ أن يُجيب المشركين بالجواب الَّذي يَردُّ به عليهم بأن يقول لهم: إنَّما أنا إنسانٌ مثلكم في الجنس والصِّفات البشريَّة، لا أتميَّز عنكم في الطَّبيعة أو الهيئة، يوحى إليَّ بأنَّ معبودَكم واحد لا شريك له، ولا يستحقُّ العبادة سواه سُبحانه، فالزموا الطَّريق المستقيم المؤدّي إلى اللّه بإخلاص العبادة له وحده، واطلبوا منه أن يغفر لكم ذنوبَكم، ويتجاوز عن سيِّئاتكم، وهلاك وعذاب شديد ينتظر من يُشرك باللّه، ويعبد معه غيره، فلا يطهِّرون أنفسهم بالإيمان باللّه والعمل الصّالح، ولا يُقدِّمون الزَّكاة المفروضة عليهم، وهم في الوقت ذاته يُنكرون الآخرة، فلا يُؤمنون بالبعث والحساب بعد الموت[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآية وبلاغته:

حُسْنُ المضمونِ وسموُّ الأسلوبِ سِمةُ إجابةِ الجاحدين

قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، وهو تلقينُ جوابٍ لقولهم: ﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا

(1) ابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ويل).
(2) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 5/ 4، والجزائري، أيسر التَّفاسير: 4/ 562.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 378، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 340، والقاسميّ، محاسن التَّأويل: 8/ 325، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 744.

عَـمِلُونَ﴾، المفرَّع على قولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ إلى آخره جواب المتبرِّئ من أن يكون له حول وقوَّة؛ ليعمل في إلجائهم إلى الإيمان لمّا أبوه؛ إذ ما هو إلّا بَشَرٌ مثلهم في البشريَّة، لا حول له على تقليب القُلوب الضّالَّة إلى الهدى، وما عليه إلّا أن يبلِّغهم ما أوحى الله إليه[1]، فهذه الآية تُعَدُّ مِفصلًا من مفاصل البيان الفارق بين كلامين مُتباينين أشَدَّ ما يكون التَّباين، فقد سمع مقالتهم السّابقة، وما تحمله من رفضٍ وجهالةٍ، وما تحمله أيضًا من بغضاء ومُحادَّة ومُنابذة، فجاء التَّلقين الرَّبّانيُّ ينضح حكمةً ورُقيًّا، وكان الجواب صورةً بالغة في الأدب والرُّقيّ الَّذي يعكس الأسلوب الأمثل في الدَّعوة إلى الله[2].

بلاغةُ القصر بأداة ﴿إِنَّمَآ﴾:

آثرَ النَّظمُ الكريم القصرَ بأداة ﴿إِنَّمَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، والقصرُ بها هو يكون للأخبار الَّتي لا يجهلها المُخاطَب، ولا يدفع صحَّتها، أو لِما يُنَزَّل هذه المنزلة[3]، واختيار هذا الأسلوب لتوكيد خبر واضح وثابت يُبرز دقائق بلاغيَّة تحتاج إلى تدبُّر؛ إذ جاء التَّأكيد لتقرير حقيقة جليَّة لا تقبل الشَّكَّ، وهي بشريَّة النَّبيِّ ﷺ، والخبر الواضح الثّابت الَّذي ليس مثارًا للشَّكِّ والإنكار[4]؛ وذلك ليكون توطئةً لذكر الوحي، وبيان أنَّ البشريَّ من شأنه أن يكون نبيًّا رسولًا من الله تعالى، فهو إثبات أمرٍ معلومٍ للمخاطَب؛ لتقرير أمرٍ وقع فيه النِّزاع.

توكيدُ المعاني المعلومة توطئةٌ لتقرير المعاني المُمارى فيها

نوعُ القصر وبلاغته:

القصرُ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾

بيانُ حِكمة الرِّسالة وتفنيد أوهام المشركين حول بشريَّة الرَّسول

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 236.
(2) أبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 327.
(3) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز: 1/ 330.
(4) العلياني، سورة فُصِّلت دراسة بيانيَّة، ص: 258.

قصْرُ موصوفٍ على صِفَةٍ قصرًا إضافيًّا، وغرضُ القصر بيانُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ مقصورٌ على البشريَّة دون التَّصرُّف في قلوب النّاس[1]، فهو بشرٌ كباقي البشر، لا يختلف عنهم إلّا في كونه يتَّصف بصفةٍ هي الفارقة بينه وبينهم، وهو أنَّه يوحى إليه، وهو ما جعل غرض القصر على البشريَّة بيانًا في كون الوحي يكون في البشر، لا كما زعم المشركون ضرورة أن يكون ملائكيًّا، فهو ينقض التَّصوُّرات الباطلة لدى المشركين، فقد ظنّوا أنَّ الرِّسالة ينبغي أن تكونَ من اختصاص الملائكة أو الجِنِّ، وعدّوا البشريَّة حِجابًا مانعًا من تصديق الرَّسول ﷺ، فجاء هذا القصر رَدًّا لهذا الاعتقاد، فهو قصر قلب، فقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ معناه إن كنتم لا تقبلون نبيًّا ولا رسولًا إلّا إذا كانت له طبيعة غير طبيعة البشر، فما أنا إلّا بشر مثلكم، آكل ممّا تأكلون منه، وأشرب ممّا تشربون، وأتزوَّج النِّساء، ويجري عليَّ نظير ما يجري على سائر البشر، فجاء هذا القصر مُبيِّنًا أنَّ البشريَّة ليست نقيضًا للرِّسالة بل هي مُقتضى الحكمة الإلهيَّة؛ إذ إنَّ البشرَ لا يُمكنهم أن يتلقَّوا الرِّسالة من غير جنسهم[2].

نكتةُ توجيهِ صفة البشريَّة بالذِّكر:

قلبُ الحُجَّة على المشركين بذكر البشريَّة؛ لتكونَ دليلَ صدق الرِّسالة

جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ من باب قلب الحُجَّة على المُخالفين، فهو رَدٌّ على تمسُّكِ المشركين ببشريَّته ذريعةً لرفض نبوَّته، فما يعتقدونه حُجَّة ضِدَّ نبوَّته هو ذاته ما يُؤكِّدُ حقيقتها؛ إذ إنَّ حكمةَ اللّهِ تقتضي أن يكون الرَّسول من جنس المُرسَل إليهم؛ ليتمكَّنوا من التَّلقّي عنه والفهم منه، ولا يحسن في الحكمة أن يُرسَل مَلَكٌ إليهم، فكون الرَّسول من البشر هو الأولى والأحكم، فهو ليس مَلَكًا ولا جنّيًّا، وإنَّما بشرٌ مثلهم، فكيف يقولون: إنَّ بيننا وبينك حجاب؟ والحجاب

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 237.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 237، والدَّرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 8/ 531، والميدانيّ، معارج التَّفكُّر: 12/ 466.

المانع عن التَّفاهم، وهو يُعقل لو كان النَّبيُّ من جنس آخر، أو يتكلَّم بلغة أخرى لا تُفهم، وكيف يقولون: إنَّ قلوبَنا في أكنَّة من هذه الحقيقة، وفي آذاننا وقْرٌ، فلا نسمعها؟ فبهذا القلب البديع يَنتقل الخطاب من دفع شُبهة إلى إقامة حُجَّة، ومن ذريعة للإعراض إلى دليل يستَوجِب الإيمان، مِمّا يجعل تَمسُّكهم ببشريَّة النَّبيِّ حُجَّة عليهم لا لهم، ويكشف غلوَّهم في الإعراض بدليل قاطع وبُرهان ساطع[1].

غرضُ الكناية وبلاغتها:

تفويضُ الأمر لصاحبِ الأمرِ في الدُّنيا والآخرة

في وصفه ﷺ بأنَّه ﴿بَشَرٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ مثلُهم في البشريَّة لا حول له على تقليب القلوب الضّالَّة إلى الهُدى، وما عليه إلّا أن يُبلِّغهم ما أوحى الله إليه، وهذا الخَبَرُ يُفيد كنايةً عن تفويض الأمر في العمل بجزائهم إلى الله تعالى، كأنَّه يقول: وماذا أستطيع أن أعمل مَعكم، فإنّي رسول من الله، فحسابكم على الله[2].

بلاغةُ التَّشبيه بلفظ (المِثْلِ):

إذا تقاربت الصِّفات؛ بانت الدَّلالات

استعمل النَّظم الكريم لفظ (مثل)؛ للتَّشبيه في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، وهو أوسع الألفاظ دلالةً على المشابهة؛ إذ يشمل كلَّ وجوه التَّشابه بين الأشياء، أيًّا كان المعنى الَّذي يقع فيه التَّماثل، فهو يتجاوز حُدودَ المُصطلحات الأخرى المحدودة بدلالاتها الخاصَّة، فأتت لفظة المِثْلِ هُنا؛ للدَّلالة على المُساواة والمُطابقة في الجنس[3]؛ لتكون المماثلة في البشريَّة سواءً بسواء، فيقع التَّماثل في الصِّفات، فتقوم الحجَّة عليهم في البيان والإفهام.

بلاغةُ الاحتراسِ بالوصف:

دفعُ تلقُّفِ الاستدلال الباطل من حكمة الخطاب ولطف البيان

جاءت صفةُ الوحي في قوله تعالى: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ للاحتراس، فهي بيانٌ لما تميَّز به عنهم على وجه الاحتراس من أن يتلقَّفوا قوله: ﴿إِنَّمَآ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 350، وحجازيّ، التَّفسير الواضح: 3/ 325.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 237.
(3) الفيروزابادي، بصائر ذوي التَّمييز: 4/ 481.

﴿أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، تلقفَ من حصل على اعتراف خصمهِ بنهوض حجَّته، بما يثبت الفارق بينه وبينهم في البشريَّة، وتتجلّى بلاغة الاحتراس؛ إذ يبرز الفارق الجوهريُّ بَينَ النَّبيِّ ﷺ وقومه، فيمنعهم من استغلال قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ كذريعة لإبطال رسالته، والاحتراس هو مضمون جملة: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، فهي ليست مُجَرَّد توضيح، بل هي شهادة فاصلة تُسجَّل عليهم الحقيقة العظمى: أنَّ الفارق ليس في الطَّبيعة البشريَّة، بل في اتِّصال النَّبيِّ ﷺ بالوحي الإلهيِّ، فهذا الاحتراس البليغُ هو للتَّسجيل عليهم إبطال زعمهم المشهور المكرَّر أنَّ كونَهُ بشرًا مانع من إرساله من الله تعالى[1].

دلالةُ التَّعبير بالمبني للمفعول:

الرِّسالةُ إلهيَّة في مصدرِها وتَفَضُّلٌ من الله تعالى على بعض العبادِ

جاءت صيغةُ فعل الإيحاء مبنيَّة للمفعولِ في قوله تعالى: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾، أي: إليَّ دونكم، فصرت بالوحي نبيًّا، ووجب عليكم اتِّباعي لا حول لي فيه، ولم أطلبه، ولم أسعَ إليه، وإنَّما هو فضل تَفَضَّل الله به عليَّ، فالفاعل معلومٌ للمخاطَب، وعدم ذكره لتسليط الدَّلالة على معنى الوحي؛ إذ مناط الكرامة بالوحي، وبه نال ﷺ المكانة العظيمة، فهو مزيَّة عالية، وفضل بالغ، يعلو به قدره على النّاس، فالرِّسالة ليست مَقامًا يُدّعى، بل هي عطاءٌ سماويٌّ يرفع الله به مَن يشاء[2].

نوعُ القصر وبلاغته:

تقريرُ التَّوحيد الخالص ومحق الشِّرك الباطل

في جملة: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ قصر بأداة القصر ﴿أَنَّمَآ﴾، وهو قصرُ صفةٍ على موصوف، فهو قصرُ صفةِ الإلهيَّة على إلهٍ معبود واحد، ومعلوم من سوابق التَّنزيل أنَّ هذا الإلهَ المعبود الواحد هو ربُّ العالمين، فهو بربوبيَّته لعباده له وحده حقٌّ أن يعبدوه، ولا يشركوا بعبادته أحدًا[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 238.
(2) الميدانيّ، معارج التَّفكُّر: 12/ 466، وأبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 328.
(3) الميدانيّ، معارج التَّفكُّر: 12/ 467.

بلاغةُ فنِّ الإدماج:

قيمةُ الهداية حاضرةٌ في السّياق القرآنيّ مؤثِّرة في مسار المعاني

قوله تعالى: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ إدماجٌ للدَّعوة إلى الحقِّ من خلال الجواب حرصًا على الهَدْي، فالسّياقُ في الرَّدِّ على المشركين ما قالوه، فأدمجَ ذِكر التَّوحيد بأسلوب القصر؛ لبيان قيمة الهداية، وإظهار أصل العبوديَّة الحقَّة، فقد جاء هذا الإدماج لتقريب الحقيقة الَّتي يدعوهم إليها، فهي ليست بعيدةً عن مداركهم ولا غريبة عن ثقافتهم، فما زال فيهم بقيَّة من دين أبيهم إبراهيم عليه السلام، ولا يزال البيت الحرام في مركز حياتهم، يحجّون إليه، ويوقّرونه باعتباره بيت الله، وحتى أوثانهم الَّتي يعبدونها، يقرِّون بأنَّها ليست معبودةً لذاتها، بل يدَّعون أنَّها وسائل تُقرِّبهم إلى الله، وبينهم مَن أدرك ضلال الوثنيَّة، وسعى إلى الدّين الحقِّ، كورقة بن نوفل وغيره مِمَّن رفضوا هذه العبادات الباطلة، فجاء هذا الإدماج؛ ليُعيدَهم إلى أصل المِلَّةِ الحنيفيَّة، ويوقظ فيهم حقيقة التَّوحيد الخالص، وكذلك التَّفريع بقوله: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾، فإنَّه إتمامٌ لذلك الإدماج بتفريع فائدته عليه؛ لأنَّ إثبات أنَّ الله إلهٌ واحدٌ إنَّما يُقصد منه إفراده بالعبادة ونبذ الشِّرك[1].

نوعُ الفاء ودلالتها:

الرَّبطُ بين الأصول وفروعها والعقائد وآثارها

تتجلَّى دِقَّةُ التَّعبير وحكمة التَّوجيه الإلهيِّ في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾؛ إذ يرتبط فعل الاستقامة بفاء التَّرتيب، مُباشرةً بالإيمان بوحدانيَّة الله؛ لتُبيِّن أنَّ التَّوحيد ليس مُجرَّد اعتقاد، بل يجب أن يُثمر في سلوكٍ قويمٍ يتوافق مع الفطرة السَّليمة والمنطق الحقِّ، ولمّا كانت الاستقامة في العمل متفرِّعة على التَّوحيد؛ إذ لا يعتدُّ العمل الصّالح بدونه؛ فرَّع عليه بالفاء، فالفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، من إيحاء

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 238، وأبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 329.

الوحدانيَّة، فإنَّ ذلك موجبٌ لاستقامتهم إليه تعالى بالتَّوحيد، والإخلاص في الأعمال[1].

فالآية تُقرِّر قاعدةً جليلةً: أنَّ الإيمان الصّادق يقتضي سلوكًا مستقيمًا يعكس أثرَ التَّوحيد في حياة المؤمن، وأنَّ الفصل بين العقيدة والعمل من أعظم الأخطاء في تاريخ النّاس، تمامًا كالفصل بين النَّظريَّة والتَّطبيق في مجالات السُّلوك كافَّة[2].

بلاغة التَّضمين:

إضفاء معنى التَّوجُّه الكامل في فعل الاستقامة الحقَّة

تعدّى فعل الاستقامة في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ بحرف الجَرِّ (إلى) بدلًا من اللّام، فلم يقل: (فاستقيموا له)، وذلك ليُشرِبَ الاستقامة معنى التَّوجُّه الكامل؛ لأنَّ التَّوحيد توجُّه، أي: صرف الوجه إلى الله دون غيره، في تصوير بليغ يجعل الإيمان بكلمة التَّوحيد "لا إله إلا الله" انقيادًا مطلقًا لله وحده، فكلمة التَّوحيد الَّتي هي أسمى ما نطق به الأنبياء، وكلمة التَّقوى الَّتي توحِّد القلوب، تقتضي ممَّن يقولها ألّا يكونَ له وجهة أو مقصد إلّا وجه الله، وأن يكونَ توجُّهه لله وإخلاصه له هو الغاية الكبرى الماثلة في كلِّ تصرُّفٍ وسلوكٍ، علمًا وعملًا، ظاهرًا وباطنًا، ويصحُّ أن يُضمن فعل الاستقامة معنى الإنابة، أي: أنيبوا إليه[3].

براعةُ تقديم الأمر بالاستقامة على الاستغفار:

الاستغفارُ عين الاستقامة، فهو الدّافعُ للذُّنوب والمطهِّر من المعاصي

قُدِّم ذِكر الأمر بالاستقامة على الاستغفارِ في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾، وما يقتضيه الظّاهرُ هو تقديم الاستغفار على الاستقامة، فالاستغفارُ تخلية والاستقامة تحلية، والتَّخلية مقدَّمة على التَّحلية، ونكتة التَّقديم أنَّ الاستقامة لا

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 121، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 3، والهرريّ، الرَّوح والرَّيحان: 25/ 305.

(2) أبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 329.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 286، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 238.

تكون كاملةً، فقد يشوبها شيءٌ من المعاصي العالقة أو الحاضرة أو المستقبليَّة، فكان ذِكر الأمر بالاستغفار بعد الأمر بالاستقامة؛ لبيان أنَّ شأنَ العبد المستقيم أن يستغفر؛ إذا حلَّت المعاصي ببابه، والاستغفار حينئذٍ يكون عين الاستقامة.

دلالةُ عطف الاستغفار على الاستقامة:

الدَّعوةُ إلى طلب الغفران من التَّقصير بعد العلم والعمل

لمّا كان أعظم ما يُقصد من الوحي هو العلم والعمل، وكان رأس العلم توحيد الله ومعرفته؛ جاء الأمر بالتَّوحيد والاستقامة عليه، ثم أتبعه رأسَ العمل، وهو ما أنبأ عن الاعتراف بالعجز مع الاجتهاد، فقال تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾، ففي هذا الاستغفار دعوةٌ إلى طلب الغفران من التَّقصير بعد العلم والعمل[1]، والوصل بين الجملتين: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ﴾ ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾؛ للاتِّفاق في الإنشائيَّة لفظًا ومعنًى، كما اتَّحدتا في بعض الجُزئيّات، فقد اشتركتا في المسند إليه، وهم المأمورون بذلك من كفّار قريش، كما أنَّ الجمل فعليَّة، وليس هناك مانع من العطف، فهو توسُّط بين الكمالين[2].

مناسبةُ عطف الاسميَّة على الفعليَّة:

جزاءُ المعاندين على الباطل مصاحبة أهل الباطل في النار

بعد أن بيَّن النَّظم الكريم أنَّ جوهر الوحي يكمن في العلم والعمل؛ ناسب أن يذكر حال المشركين، فقال: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾؛ إذ إنَّ التَّوحيد هو أساس العلم، والاستغفار والتَّوبة من الذُّنوب هما دعائمهما في العمل، بعد ذلك توجَّه بالتَّهديد لأولئك الَّذين يشركون بالله، ويغفلون عن تطهير أنفسهم من دنس الشُّحِّ والبخل، وينكرون البعث والحساب، وهؤلاء الَّذين ينغمسون في لذائذِ الدُّنيا، ويغفلون عن مصيرهم الأبديِّ، فقد حكم عليهم الله بعاقبةٍ شديدة على

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 17/ 145.
(2) العلياني، سورة فُصّلت دراسة بيانيَّة، ص: 363.

انصرافهم عن الحَقِّ[1]، فعطف جملة الوعيد الاسميَّة على الفعليَّة؛ لبيان ثباتهم - إن أصرّوا على عنادِهم - في نار جهنَّم، فجزاء الثّابتين على الباطل الثَّباتُ في مصاحبة أهل الباطل في المآل.

بلاغةُ الالتفات من الخطاب إلى الغيبة:

التَّهديدُ الضمنيُّ أزجـرُ وأردعُ وأوقـع في دائرة القبول

جاء قوله تعالى: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾ عدولًا عن أسلوب الخطاب المباشر الَّذي جاء في قوله: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾، إلى أسلوب غير مباشر؛ إذ جاء التَّهديد في قوله: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾؛ ليحمل في طيّاته تهديدًا عامًا شاملًا لكلِّ مَن أتى بالشِّرك، وصار تهديدهم مدلولًا عليه بالدَّلالة التَّضمُّنيَّة[2]، فلم يأتِ التَّهديد مباشرًا في الخطاب كي لا يحصل لبسٌ بين الأمر بالاستقامة والاستغفار والوعيد للمشركين، ولحثِّ المأمورين على أن يكونَ في زمرة المشركين، فينالوا ما سيناله هؤلاء المشركون، فهذا العدول يعمِّق التَّأثير النَّفسي على المخاطَبين، ويُؤكِّد أنَّ التَّهديد شامل لجميع المشركين، فيظهر في صورة تحذير عامٍّ، لا يتعلَّق بشخص مُعيَّن، ممّا يوسِّع دائرة الخوف والوجل لدى المُخاطَبين مع استمالة قلوبهم للاستجابة والتَّوبة.

نكتةُ تنكير لفظ (ويل):

تهويلُ الوعيد وتعـظـيـم العُقوبة

الويل: كلمة تُستَعمل في العذاب والهلاك، وقد نُكِّرَ هذا اللَّفظ في قوله تعالى: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾؛ لتهويله وتعظيمه، وهذا ما يشيع في النُّفوس إحساسًا مهيبًا بالهلاك والعذاب المحتوم، فالتَّنكير يحمل في طيّاته تهويلًا وتعظيمًا للعقوبة، ويجعلها مجهولة المقدار شديدة الأثر، وفي هذا من الإنذار من الشِّرك والضَّلال ما فيه[3].

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 24/ 106.
(2) أبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 331.
(3) حبنّكة، معارج التّفكر ودقائق التدبّر: 12/ 466، والعلياني، سورة فُصّلت دراسة بيانيَّة، ص: 63.

فائدةُ استعمال الاسم الموصول:

الامتناعُ عن أداء الزَّكاة من أسباب العناد على الكفر

استعمل النَّظمُ الكريم الاسمَ الموصول في جُملة: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ للإيماء إلى وجه بناء الخبر، وهو ذمُّهم في منع الزَّكاة وكفرهم بالآخرة؛ إذ يَظهر في ذلك التَّشنيع والتَّشهير بهم عَبْرَ التَّعريف بالاسم الموصول المفيد في كون هؤلاء معروفين بأنَّهم يمتنعون عن أداء الزَّكاة، وامتناعهم هذا هو من أسباب عنادهم على الشِّرك، وبقائهم في الكفر.

توجيهُ استشكال ذِكر الزَّكاة في مكَّة:

بيانُ مكانةِ الزَّكاة عند الله تعالى وأنَّها إعانةٌ على التَّوحيد

ذِكرُ الامتناع عن إيتاء الزَّكاة قد يُشكل باعتبار أنَّ الزَّكاة فُرضت في السَّنة الثَّانية من الهجرة إلى المدينة والآية مكِّيَّة، وقد قيل في دفع الإشكال كلام كثير، أظهرُهُ أنَّ المُراد بالزَّكاة المفروضة الَّتي هي أخت الصَّلاة، فالزَّكاة كانت موجودة بين أهل مكَّة، وكانت خصلة باقية من دين سيِّدنا إبراهيم وإسماعيل عليهما الصَّلاة والسَّلام، كما قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ۝٥٤ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ۝٥٥﴾ [مريم: 54 - 55]، فالزَّكاة فريضةٌ قديمة في كلِّ دين، ومعنى أنَّها فُرِضت فيما بعد الهجرة أنَّ الإسلام أقرَّ فريضتها، وبيَّن أنصبتها، وفصَّل مقاديرها من كلِّ نوع من أنواع الأعمال، وإنَّما ذُكِرت بينَ الشِّرك وإنكار البعث للإشارة إلى أنَّها عند الله بمكان[1]، وأنَّها معينة على التَّوحيد، فإنَّ مَن يُزكِّي أمواله، فإنَّما يتقرَّب إلى الله تعالى بأعزِّ ما عنده، ومن يمتنع عن أدائها، فإنَّما يُقدِّمها على رضا الرَّحمن، بما يبلغ به الكفر الصَّريح، والشِّرك الفاضح.

دلالةُ استعمالِ مفردة الإيتاء دون مُرادفاتها:

خُصَّ دفْعُ الأموالِ بفعل ﴿يُؤۡتُونَ﴾ دون (يدفعون) أو (يعطون)

(1) البالِيسانيّ، حسن البيان، ص: 2208، وأبو موسى، آل حم: (غافر - فصّلت)، ص: 333.

أو (يؤدّون)؛ لأنَّ فعلَ الإيتاءِ يُستعملُ في الدَّفع والإعطاءِ الحِسّيِّ، فضلًا عن دلالته على الإعطاء بسلاسةٍ ومطاوعةٍ مع الرِّضا والقَبول والرِّفقِ بالعطاء، فهذه الصّيغة تُبرز أبعادًا معنويَّةً لا تُحقِّقها بقيَّة الألفاظ، ممّا يعكس روح العطاء الممزوجة باللّين والقَبول[1]، وفي هذا من بَعثٍ للمُؤمِنينَ على أداءِ الزَّكاةِ ما فيه[2].

الإيماءُ إلى أنَّ مَذحَ المزكّين يكون في المُطاوعة مع الرِّضا

بلاغةُ التَّعبير بالمضارع المنفيّ:

جاء استعمالُ المضارع المنفيِّ في التَّعبير عن عدم إيتاء الزَّكاة في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ عدمَ إيتائها مُتجدِّد فيهم، فهُم يبحثون على الدَّوام عن أسباب الامتناع عن الزَّكاة، فهُم مهما شاهدوا من صور احتياج الفقراء، وأحوال ضعف المساكين، فلا يتحرَّكون تجاههم برحمة، ومهما جاءتهم الأوامرُ الإلهيَّة، فلا يستجيبون لها بخضوع واستسلام، فلمّا كانت أسباب إيتاء الزَّكاة متجدِّدة؛ ناسب نفي تجدُّد الامتناع عن إيتائها، فهو يوحي بأنَّ امتناعهم عن إيتاء الزَّكاة ليس حادثًا عارضًا، بل هو حالةٌ مُستمرَّة ومُتجدِّدة تدلُّ على استغراقهم في البخل والجحود[3].

تجدُّدُ أحوال احتياج الفقراء والمساكين لا يشفع عند البخلاء القساة في بذل المال

نوعُ الواو ودلالتها:

الواو في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ إمّا أن تكون معطوفة على الصِّلة، وإمّا أن تكون واو الحال، فيكون عدمُ إيتائهم الزَّكاةَ مقيَّدًا بهذه الحال، وهو كفْرُهم بالآخرة، والحاليَّة هنا مُشعرة بأنَّ امتناعهم عن الزَّكاة لاستغراقهم في طلب الدُّنيا وإنكارهم للآخرة[4]، فهي إشارةٌ إلى علَّة امتناعهم، وبهذا يتضاعف توبيخهم

الإشعارُ بعِلَّة منع الزَّكاة والإيماء إلى قوَّة الطُّغيان

(1) الراغب، المُفردات: (أتى).
(2) الشَّربينيّ، تفسير الشَّربينيّ: 3/ 504.
(3) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 25/ 306.
(4) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 67، وبهجت، إعراب القرآن الكريم، ص: 12، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 239.

وتبكيتهم؛ إذ اجتمع فيهم كفرهم بالآخرة مع مَنْعِهم الزَّكاة وكفرهم باللّه وكتابه، وكلُّ هذا يُضاعف استحقاقَهم للذَّمِّ والعقاب[1].

نكتةُ قرنِ منعِ الزَّكاة بالكفرِ بالآخرة:

الـزَّكـاةُ بـرهـانُ الإيـمـان بـالله واليوم الآخر

قرنَ النَّظمُ الكريم منعَ الزَّكاة بالكفرِ بالآخرة في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ﴾؛ ليُبرز دلالةً عميقة في الارتباط، ذلك أنَّ المالَ هو أحبُّ ما يتعلَّق به الإنسانُ، فهو شقيقُ روحه، فإذا جادَ به في سبيلِ اللّه؛ كان ذلك أصدقَ برهانٍ على صدقِ إيمانه، ونقاءِ سريرته، واستقامةِ طريقته، وما لانت قلوبُ المُؤلَّفة قلوبُهم إلّا بيسيرٍ من المال، فلانت شكيمتهم، وزالت عصبيَّتهم، كما أنَّ ما أوقع بني حنيفة في الرِّدَّة بعد رسول اللّه ﷺ، كان منعَهم للزَّكاة؛ إذ فضَّلوا أموالَهم على دينهم، فعرَّضوا أنفسَهم لحروبٍ طاحنةٍ، وقبلوا الطَّعنَ والضَّربَ حفاظًا على أموالهم، ولو كان الثَّمن أرواحَهم ومُهجَهم وقرن - أيضًا - عدم إيتائهم للزَّكاة بكفرهم بالآخرة؛ لأنَّ الصِّفات الذَّميمة لا تتعلَّق إلّا بالكفرة، ولولا كُفرهم بها؛ لما أشركوا، ومنعوا الزَّكاة[2].

دلالةُ التَّعبير بالجملة الاسميَّة:

بـيـانُ اسـتـمـرار الـكُـفـرِ وذَمِّ التَّعنُّت فيه

في قوله تعالى: ﴿وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ﴾، لمّا كانَ النَّظَرُ إلى بيان كذبهم وتكذيبِهم؛ بولِغَ في تأكيد المعنى، فجاءَ المبتدأ (هم) مُخبَرًا عنه بجملة اسميَّةٍ ﴿هُمْ كَـٰفِرُونَ﴾، وعَبَّرَ بالضَّميرِ (هُم)؛ للإيذان بأنَّ الإخبار هو عن المذكورين بصفاتهم المعلومة في أذهان السّامِعين، وللإشعار بأنَّهُم مستمرِّون بضمائرهم وظواهرهم في الكفر بالآخرة، فأفادت الاسميَّة التَّقرُّر في التَّعليل وتأكيده، وبهذا تأتي الجُملة كالشَّهادة القاطعة على

(1) شحاتة، تفسير القرآن الكريم: 24/ 4869، وأحمد، التّفسير الواضح، ص: 1197.
(2) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 25/ 306.

استمرارهم في الكفر وتعنُّتهم في إنكار الآخرة، مِمّا يُبرز شِدَّةَ ذَمِّهم والتَّوبيخ الموجَّه إليهم[1].

فائدةُ تقديم شِبْهِ الجُملة:

أشنعُ ما كفر به المشركون البعث والحساب

قُدِّمت شبه الجملة ﴿بِٱلْآخِرَةِ﴾ على مُتعلَّقِها، وهو ﴿كَٰفِرُونَ﴾؛ لإفادة الاهتمام، فلمّا كان تكذيبهم بالآخرة شديدًا، وأراد أن يُؤكِّد المعنى، ويكون لهم اختصاص بمزيد كفرٍ، فالكفر بالآخرة هو أشنع ما اقترفه المكذِّبون، كما أنَّه لا يحسن مجيئه على أصل الكلام بأن يُقال: (وهُم هم كافرون بالآخرة)، فلمّا تقدَّمَ الجارُّ والمجرور؛ حَسُنَ النَّظمُ، وقوي المعنى[2].

فائدةُ استعمال ضمير ﴿هُمْ﴾ وتكراره:

تأكيدُ الذَّمِّ للكافرين جاء إبرازًا لشِدَّة تعنُّتهم وجحودهم

ضمير الفصل ﴿هُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿هُمْ كَٰفِرُونَ﴾، لا يُفيد إلّا توكيد الحكم، ويشبه أن يكون هنا توكيدًا لفظيًّا، ومثله قوله تعالى: ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ في الأعراف ويوسف، وفائدته تأكيد الذَّمِّ لهؤلاء الكافرين إبرازًا لشِدَّة تعنُّتهم وجحودهم[3]، وكُرِّر (هُمْ) على جهة تأكيد تعيين أنَّهُم (هُمُ الكافرونَ) بالآخرة، واختصاصهم به على معنى الاختصاص الادِّعائي حتَّى كَأَنَّ كُفْرَ غيرِهم غَيْرُ معتدٍّ به بالنِّسبة إلى عظيم كُفْرِهم، فالمجيءُ بضمير الفَصل - على هذا المعنى - لقصد الحصر[4].

نكتةُ التَّعبير بصيغة اسم الفاعل:

بيانُ رسوخِ الكافرين في الكفر واستمرارهم عليه

لمّا أخبرتِ الآية عن الكافرين بصيغة المشتقِّ ﴿كَٰفِرُونَ﴾؛ أفادَ أنَّهم عريقون في وصفِ الكُفْرِ، حتّى صارَ صفةً لازمة مِن صِفاتِهم، وأضحى ذلك سمة ثابتة لهم، فالكفر أمرٌ مستمرٌّ

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 122، والهرريّ، الرَّوح والرَّيحان: 25/ 306.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 240.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 240.
(4) الهرريّ، الرَّوْح والرَّيحان: 25/ 306.

عندهم، فهُم منكرون للآخرة بما فيها من الحساب والجزاء، جاحدون لها حالًا ومآلًا[1].

توجيهُ المتشابه اللَّفظي:

التَّـمـيُّـز بين الآيتين في تأكيد الحكم بحسب المقام والمُناسبة

جاء قوله تعالى: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ في هذه السّورة، كما أنَّها جاءت في سورة الأعراف: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ۝٤٥﴾ [الأعراف: 45] بحذف (هُمْ)، وذكر ﴿هُمۡ﴾ توكيد يقوّي الحُكْمَ، ويُثبِّته، وذلك لأنَّ المَقام هُنا مقام تسجيل إنكارهم للبعث الَّذي دَفَعَهُم لمنع الزَّكاة، مِمّا يُشير إلى عظيم الويل والعقابِ الَّذي توعَّدَهم الله به، ففي هذا السّياق حكى عنهم ما يَتناسب مع الحال في التَّأكيد والوعيد، في حين أنَّ ما جاء في سورة الأعراف في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ۝٤٥﴾ [الأعراف: 45]، فهو حكاية عن قوم دخلوا النّار، وقد ظَهَرَ عِقابهم، فكان لزامًا أن تُنقل حكاية الأشهاد بما يتلاءم مع المقام دون زيادة في التَّوكيد؛ إذ يتعيَّن أن تكون الحكاية مُناسبة لما جَرى[2].

(1) الهرري، الرَّوْح والرَّيحان: 25/ 306.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/ 34، و24/ 240.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والخمسون،
سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والخمسون، سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 52 ، 818 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-641-48-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 52 : المجلد الثاني والخمسون، سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-641-48-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0346315 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"